الإمام الجنـيـد عند محيي الدين ابن العربي

عبد الباقي مفتاح (الجزائر)

مدخل:

بالرّجوع إلى تاريخ التصوف ، نجد في مدارسه اتجاهين متكاملين في نشر مناهجه وعلومه عمليّا ونظريّا. أمّا الاتجاه الأوّل فقد اتخذ من الزوايا والمساجد والحلقات الخاصّة مواقع للدعوة ، وجعل من مجالسه معاهد لتخريج الرّجال بعد تكوينهم ، فلم يهتم اهتماما كبيرا بتأليف الكتب ، إذ أنّ أئمته كانوا يرون في القرآن الكريم وسنة النبي - ﷺ- ما فيه غنى ، فتوجّهوا بالخصوص إلى تأليف القلوب على تجسيد تلك التعاليم القرآنية والنبويّة في حياة الأفراد والمجتمعات. وقد عبّر عن موقف هذه المدرسة جنيدي زمانه الشيخ أبو الحسن علي الشاذلي(ت: 656هـ) حين سئل : لماذا لا تدوّن الكتب في الدلالة على الله وعلوم القوم ؟ فأجاب : "كتبي أصحابي". وأغلب شيوخ الطريق في كلّ زمان هم من أهل هذا الاتجاه.

أمّا الاتجاه الثاني فقد اتخذ من الكتب والرسائل وسائل لشرح علوم القوم ومناهج تربيتهم. ومن روّاد هذا الاتجاه الحارث المحاسبي(ت:243هـ) أستاذ أبي القاسم الجنيد البغدادي(215- 297هـ). لكن الجنيد لم يسلك سبيل أستاذه هذا ، بل بالعكس ، أوصى بدفن جميع ما هو منسوب إليه من علومه ، فقيل له: ولِم ذلك ؟ فقال: [أحببت ألاّ يراني الله وقد تركت شيئا منسوبا إليّ ، وعِلم رسول الله – صلى الله عليه وسلم- بين ظهرانيهم][1] أي بين ظهراني المسلمين.

فالجنيد من رجال الوجهة الأولى التي جعلت كتبها صدور تلاميذها ؛ ولقد حضي منها بأوفر نصيب حيث أنّ سلاسل جُلّ الطرق الصوفية في المشارق والمغارب تجتمع عنده ، حتى سُمّي بإمام الطائفة ، وكلما أراد صوفي جاء بعده أن يستبرأ لنفسه من الأمور المستحدثة في بعض الطرق ، ينسب نفسه للجنيد ، فيقول : "إني جنيدي في التصوّف" ؛. والشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي(560-638هـ) في كتابه "نسب الخرقة" ذكر سلسلته الموصولة بالجنيد عن طريق الشيخ عبد القادر الجيلاني(ت:

[1] النص من "تاريخ بغداد" ، الخطيب البغدادي ، دار الكتاب العرب ، بيروت ، لبنان(د.ت.) ، ج7/ص248 ؛ كما ورد في الطبقات الكبرى لعبد الوهاب الشعراني ، مكتبة مصطفى إلياس الحلبي وأولاده ، مصر ، ط1 ، 1954م ، الجزء 1 ، ص85.

561هـ).

لكن رغم هذا ، بقيت بعض أقوال الجنيد وتوجيهاته وأدعيته ، ورسائله إلى بعض أصحابه ، محفوظة مَرْويّة في كتب التصوّف. وقد قامت الأستاذة الكبيرة سعاد الحكيم بجمعها وتحقيقها ودراستها في كتابها الممتاز الذي عنوانه: (تاج العارفين الجنيد البغدادي- الأعمال الكاملة)[1].

الجنيد في كتب ابن العربي:

ولمّا بلغت المعارف الصوفية أوجها الأعلى في القرنين السادس والسابع عند الشيخ الأكبر محيي الدّين ابن العربي(560 – 638هت) ، كان من البديهي أن نجد في تآليفه الكثيرة حضورا قويّا لبعض أقوال الجنيد وأحواله. فمثلا تردّد اسمه والاستشهاد بكلمات له في "الفتوحات المكية" بضع وأربعون مرّة ، وسنختصر في ما يلي أهمّ تعليقاته وشروحه على تسع كلمات للجنيد.

1- استشهد ابن العربي بقول الجنيد لمّا سُئل: بما نلت ما نلت ؟ فقال: بجلوسي تحت تلك الدرجة ثلاثين سنة ، فقال ما خلاصته:

إنّ المتأهّب إذا لزم الخلوة والذكر ، وفرّغ المحلّ من الفكر ، وقعد فقيرا لا شيء له عند باب ربّه ، حينئذ يمنحه الله تعالى ويعطيه من العلم به والأسرار الإلهية والمعارف الربّانية التي أثنى الله سبحانه بها على عبده خضر فقال: [عَبْداً من عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً من عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ من لَدُنَّا عِلْماً]- الكهف:65- وقال:[إنْ تَتَّقُوا الله يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً] – الأنفال:29- وقال:[وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ به]- الحديد:28- . قيل للجنيد: بما نلت ما نلت ؟ فقال: بجلوسي تحت تلك الدرجة ثلاثين سنة. فيحصل لصاحب الهمة في الخلوة مع الله وبه من العلوم ما يغيب عندها كل متكلم على البسيطة ، بل كل صاحب نظر وبرهان ليست له هذه الحالة ، فإنها وراء النظر العقلي[2].

2- كلمة أخرى للجنيد مشهورة جدا ، وكرّرها ابن العربي في الفتوحات نحو عشر مرّات ، وهي قوله:[علمنا هذا مقيّد- أو مشيّد- بالكتاب والسنّة] ، فقال عنه ما خلاصته: يريد الجنيد أنّ العلم الوهبي من الله تعالى لعباده الصالحين هو نتيجة العمل بالكتاب والسنة ، فأراد أن يفرّق بين ما يُعطى الله كرامة لصاحب الخلوات والمجاهدة والرّياضة على طريق الشرع ، وبين ما يحصل للنفوس من كشوفات بالرّياضات النفسية التي لم يأت بها شرع إلهي ، وإنما انتهجها أرباب العقول أصحاب

[1] طبعته دار الشروق ، القاهرة ، مصر: الطبعة الأولى سنة 2004 ، والثانية سنة 2005 ، والثالثة سنة 2007.

[2] الفتوحات المكية ، ابن عربي ، دار صادر ، بيروت (د.ت.)،الجزء 1 ، الخطبة ص31.

النواميس الحِكمية الذين فيضهم روحاني ، بينما فيض أهل الله روحاني وإلهي[1].

3- وفي نفس هذا السياق استشهد الشيخ بقول الجنيد:[إنْ كنتُ أجريه فأنا أمليه]فقال ما خلاصته:

وإنما نورد في جميع كتبنا ما يعطيه الكشف ، ويمليه الحق ، هذه طريقة القوم ، كما سُئل الجنيد عن التوحيد فأجاب بكلام لم يُفهم عنه ، فقيل له: أعِدْ الجواب فإنّا ما فهمنا ، فقال جوابا آخر ، فقيل له: وهذا أغمض علينا من الأوّل فأمْلِه علينا حتى ننظر فيه ونعلمه ، فقال: [إن كنت أجريه فأنا أمليه] أشار إلى أنه لا تعمّل له فيه ، وإنما هو بحسب ما يُلقَى إليه ممّا يقتضيه وقته ؛ ويختلف الإلقاء باختلاف الأوقات. ومَن علم الاتساع الإلهي علم أنه لا يتكرّر شيء في الوجود ، وإنما وجود الأمثال في الصور يُتخيّل أنها أعيان ما مضى ، وهي أمثالها لا أعيانها ، و مِثل الشيء ما هو عينه[2].

4- ومنبع هذا الإملاء هو تحقق أهل هذا المقام بما يسمّيه ابن العربي بالسماع الإلهي المختلف عن السماع الروحاني والسماع الطبيعي ، فيقول في باب معرفة السماع:

لله طائفة خرجت من الحركات الحسّية إلى الحركات الروحانية العقلية ، إلى الحركات الإلهية ، وهو قول الجنيد -عندما سُئِل عن سبب عدم تحرّكه عند السماع-:[وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب]- النمل:88-. ولكن في الحال التي تحسبها جامدة ، فتنسب الحركة إلى هذا الشخص نسبتها إلى الجناب الأقدس ، في فرحه بتوبة عبده وتبشبشه لمن أتى بيته ، ، فهذه أحوال إلهية يجب الإيمان بها ، لا يعقل لها كيفية إلا من خصّه الله بها ، وكانت حركته في سماعه إلهية ، وهي من العلوم التي تنال ولا تنقال[3].

5- لكن رغم اشتهار الجنيد بالصحو الكامل في جلّ أحواله ، فقد ظهر عليه في أوقات نادرة التواجد والوجد عندما تكون ظروف الزمان والمكان والإخوان مناسبة ، وابن العربي يعرّف حقيقة السماع فيقول:[كلّ سماع لا يكون عنه وجد ، وعن ذلك الوجد وجود ، فليس بسماع][4] . وكمثال لهذا أورد ما رواه جعفر بن مُحَمَّد الخلدي الذي قال:

[1] المصدر السابق ، الباب70 ، الجزء1 ، ص607- 608.

[2] المصدر السابق ، الباب 198 ، الجزء2 ، ص 432.

[3] المصدر السابق ، الباب 182 ، الجزء2 ، ص 368.

[4] المصدر السابق ، الباب 182 ، الجزء2 ، ص 366.

كنت مع الجنيد رحمه الله في طريق الحجاز ، حتى صرنا إلى جبل طور سيناء ، فصعده الجنيد وصعدنا معه ؛ فلمّا وقفنا في الموضع الذي وقف فيه موسى – عليه السلام- وقعتْ علينا هيبة المكان ، و كان معنا قوّال ، فأشار إليه الجنيد أن يقول شيئًا ، فقال:

وبدا له من بعد ما اندمل الهوى   برق تألّق موهنا لمعـانه

يبدو كحاشيـة الرّداء و دونــه   صعب الذرا متمنّع أركانه

فبدا لينظر كيف لاح فلم يطـق   نظرا إليه وصدّه سبحانـه

فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه   والماء ما سحّت به أجفانه

قال: فتواجد الجنيد وتواجدنا ، فلم يدر أحد منا أفي السماء نحن أو في الأرض ؟ ورآهم في هذه الحالة راهب فتحاور مع الجنيد وأسلم وحسن إسلامه[1].

ومع هذا فقد كان الجنيد يربّي أصحابه على تجاوز الانحصار تحت قهر الأحوال ، وهو القائل:[لا يضرّ نقصان الوجد مع فضل العلم ، وإنما يضرّ فضل الوجد مع نقصان العلم][2] ؛ وله في هذا المجال قصص عديدة ، منها قوله في وَله الشبلي(ت:334هـ) ، حين قيل له إنه يُردّ في أوقات الصلوات ، فإذا فرغ حَكم عليه حال الوله ، وحال بينه وبين عقله الذي يعطيه الصحو فقال الجنيد: "الحمد لله الذي لم يجر عليه لسان ذنب". ويعلّق ابن العربي على قوله هذا فيقول:

قال الإمام أبو القاسم الجنيد بن مُحَّد سيّد هذه الطائفة:"الحمد لله الذي لم يجر عليه لسان ذنب" ، ولم يضف إليه الذنب ، و لكن يتعلق به لسان الذنب من حيث الصورة عند من لا يعرفه ، وهو في نفس الأمر غير مذنب. قال بعض أصحابنا: فلولا أنّ التنزه عن جريان لسان الذنب أَوْلى وأعظم لما حمد الله على ذلك هذا الإمام. قلنا: ليس الأمر كما زعمتَ ، وإنما خاف هذا الإمام على مَن لم يبلغ هذه الرتبة أن يظهر بها وهو غير محقق بها ، فيخطئ فيقع في الذنب ، ولهم الشفقة على العالم. وأمّا أن يكون من طريق الأفضلية فلا ، وكيف يكون ذلك وقد أطلق سبحانه ألسنة عباده عليه وعلى رسله بالذم والسبّ ، فلصاحب هذا الوَله فيمن ذكرنا أسوة وعِزّ[3] .

6- ومن أقوال الجنيد التي كثيرا ما استشهد بها ابن العربي في "الفتوحات" و"فصوص الحكم"(في فص

---

[1] المصدر السابق ، الباب 560 ، الجزء4 ، ص 549.

[2] النص من كتاب "اللمع" لأبي نصر السراج الطوسي ، دار الكتب الحديثة ، مصر ، 1960م ، ص 247.

[3] الفتوحات المكية ، ابن عربي ، دار صادر ، بيروت (د.ت.)،الجزء2 ، الباب 297 ، الجزء2 ، ص 648.

شعيب الثاني عشر) وغيره قوله:[إنّ المحدث إذا قرن بالقديم لم يبق له اثر] وذلك عندما سمع عاطسا يقول: الحمد لله ، فقال له الجنيد: أتمّها كما قال الله:"الحمد لله ربّ العالمين" ، فقال العاطس: يا سيّدنا ومَن العالم حتى يُذكر مع الله ؟ فقال له: الآن قله يا أخي ، فإنّ المحدث إذا قرن بالقديم لم يبق له اثر.

وعلّق الشيخ على هذه الكلمة فقال ما خلاصته:

هذا هو مقام الوصلة ، وحال وَله أهل الفناء عن أنفسهم. وأمّا لو فنى عن فنائه لمّا قال: "الحمد لله" ، لأن في قوله "الحمد" أثبت العبد الذي هو المعبّر عنه بالرّداء عند بعضهم. ولو قال: "رب العالمين" لكان أرفع من المقام الذي كان فيه ، فذلك مقام الوارثين ، ولا مقام أعلى منه ، لأنه شهود لا يتحرك معه لسان ، ولا يضطرب معه جنان. أهل هذا المقام استولت عليهم أنوار الذات ، وبدت عليهم رسوم الصفات ، هم عرائس الله المخبّؤون عنده ، المحجوبون لديه الذين لا يعرفهم سواه ، كما لا يُعرفون ؛ توّجهم بتاج البهاء وإكليل السناء ، وأقعدهم على منابر الفناء عن القرب في بساط الأنس ، ومناجاة الديموميّة بلسان القيوميّة ، أورثهم ذلك قوله:[عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ]-المعارج:23-و[بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ]- المعارج:33-، فلم تزل القوّة الإلهية تمدّهم بالمشاهدة ، فيبرزون بالصفات في موضع القدمين(يعني الكرسي) ؛ لا يحيدون عن سواء السبيل ؛ فهم بالحق ، وإن خاطبوا الخلق وعاشروهم فليسوا معهم ، وإن رأوهم لا يرون منهم إلا كونهم من جملة أفعال الله ، فهم يشاهدون الصنعة والصانع ، مقاما عمريا(أي قول عمر – رضي الله عنه- : ما رأيت شيئا إلا رأيت الله بعده). فهنيئا لهذه العصابة بما نالوه من حقائق المشاهدة ، وهنيئا لنا على التصديق والتسليم لهم بالموافقة والمساعدة[1].

ومن وجه آخر فإنّ العارف لمّا وسع الحق قلبُه ،وسع قلبه كلّ شيء ، إذ لا يكون شيء إلا عن الحق ، فلا تتكوّن صورة شيء إلا في قلب العبد الذي وسع الحقّ. والمحدث إذا قرن بالقديم كان الأثر للقديم ولم يبق اثر للمحدث وإن بقي له عين ، فالمحدَث عين الأثر. فالعالم على أصله في العدم ، والحكم له فيما ظهر من وجود الحق[2].

7- ومن بين أشهر مقولات الجنيد التي تكرّرت في العديد من كتب الشيخ ، وتكرّرت في "الفتوحات المكية" تسع مرّات- كما استشهد به في آخر الفص المحمدي الذي هو آخر باب من كتابه "فصوص الحكم"- قوله لمّا سُئل عن المعرفة والعارف:[لون الماء لون إنائه]. وخلاصة تعاليق الشيخ على هذه المقولة قوله:

[1] المصدر السابق ، الباب5 ، الجزء1 ، ص 103.

[2] المصدر السابق ، الباب405 ، الجزء4 ، ص 8.

العارف متخلق بأخلاق الله ، وهو على قدر ما يُقام فيه من أحوال الشهود ، وهو قول الصوفي: إنه الظاهر في المظاهر ، والمظاهر على ما هي عليه ،والظاهر فيها هو الموصوف بالعلم بأمور ، وبالجهل بأمور ، أعطاه ذلك استعداد المظهر لمّا انصبغ به ، فهو قول الصوفية: إنّ العالم خرج على صورة الحق في جميع أحكامه الوجودية ، فلمّا كان العالم ظرفا مكانيا لمن استوى عليه ، ظهر بصورته. وعلوم العارف إذا أعطاها الله العبد في غير صورها وأعلمه ما أراد بها ، هي كالماء المتلوّن بلون وعائه ، فصار في العين مركبا من متلوّن ولون ، وهو في نفس الأمر شيء آخر. كذلك التجليات في المظاهر الإلهية حيث كانت ، فالعارف يدركها دائما ، والتجلي له دائم ، والفرقان له دائم ، فيعرف مَن تجلى ، ولماذا تجلى ، ويختص الحق دون العالم بكيف تجلى ، لأنّ الذات مجهولة في الأصل ، فعِلم كيفية تجليها في المظاهر غير حاصل. فأثبت الجنيد الحرف والمعنى ، والإدراك ونفْي الإدراك ، ففرّق وجمع ، فنِعم ما قال[1]. وجعل الأثر للظرف في المظروف ، لتعلم مَن عرفت ، فتعلم أنك ما حكمتَ على معروفك إلا بك ، فما عرفتَ سواك. والذي يحفظه الإنسان إنما هو اعتقاده في قلبه ، فذلك الذي وسعه من ربّه ، فاعلم أنك ما زلت عنك ، ولا عرفت سوى ذاتك ، فالحادث لا يتعلق إلا بالمناسب ، وهو ما عندك منه ، وما عندك حادث ، فما برحت من جنسك ، وما عبدت في الحقيقة سوى ما نصبته في نفسك ، ولهذا اختلفت المقالات في الله وتغيّرت الأحوال ، فقالت طائفة في العلم به: لون الماء لون إنائه. فاشهدوه بكلّ عين إن أردتم إصابة العين ، فإنه عامّ التجلي ، له في كلّ صورة وجه ، وفي كل عالم حال[2].

8- ومن تعليقات ابن العربي الأخرى عن كلمات الجنيد قوله عن الأفراد من الأولياء ما خلاصته:

قال الخضر لموسى - عليه السلام-: "يا موسى أنا على علم علـّمنيه الله لا تعلمه أنت ، وأنت على علم علـّمكه الله لا أعلمه أنا" ، و افترقا وتميّزا بالإنكار. فالإنكار ليس من شأن الأفراد ، فإنّ لهم الأوّلية في الأمور ، فهم يُنكر عليهم ولا ينكِرون. قال الجنيد: [لا يبلغ أحد درج الحقيقة حتى يشهد فيه ألف صديق بأنه زنديق] ، وذلك لأنهم يعلمون من الله ما لا يعلمه غيرهم ، وهم أصحاب العلم الذي كان يقول فيه علي بن أبي طالب - رضيالله عنه- حين يضرب بيده إلى صدره و يتنهد: [إنّ هاهنا لعلوما جمّة لو وجدت لها حملة] ، فإنه كان من الأفراد. وكان من الأفراد عبد الله بن العباس ، البحر كان يلقب به لاتساع علمه ، فكان يقول في قوله عز وجل: [اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ من الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ]- الطلاق: 12-: "لو ذكرت تفسيره لرجمتموني" ، و في رواية: "القلتم إني كافر". وإلى هذا العلم كان يشير على ابن الحسين بن علي بن أبي طالب زين العابدين -عليهم الصلاة والسلام- بقوله- فلا أدري هل هما من قيله أو تمثل بهما- :

[1] المصدر السابق ، الباب267 ، الجزء2 ، ص 316.

[2] المصدر السابق ، الباب127 ، الجزء2 ، ص 212.

يا رُبّ جوهر علم لو أبوح به   لقيل ليأنت ممّن يعبد الوثنا

ولاستحلّ رجال مسلمون دمي   يرون أقبح ما يأتونه حسنا

فنبّه بقوله: "يعبد الوثنا" على مقصوده ، يُنظر إليه تأويل قوله - ﷺ-:[إن الله خلق آدم على صورته] بإعادة الضمير على الله تعالى ، وهو من بعض محتملاته[1].

9- وعلّق أيضا ابن العربي عن كلمة الجنيد في الفراسة العرفانية فقال:

العارفون بالله أعرف بالإنسان من‌نفسه ، لأن لهم أعين في قلوبهم فتحتها لهم المعرفة ، يرون بها منك ما تجهله أنت من نفسك ، لأنه ليست لك تلك العين ، ولهذا قال الجنيد:[العارف من ينطق عن سرّك وأنت ساكت] فمعناه: يعرف منك ما لا تعرفه أنت من نفسك ، كالخفي من سوء المزاج ، يعرفه الطبيب منك إذا نظر إليك ، ولا تعرفه أنت ، وهؤلاء أطبّاء النفوس[2].

وفي هذا السياق ما روي عن فراسة الجنيد ، أنّ غلاما نصرانيا متنكرا وقف عليه وهو يتكلم على الناس في الجامع ، وقال له: أيها الشيخ ، ما معنى الحديث:[اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى]؟ فأطرق الجنيد ، ثمّ رفع رأسه ، وقال: أسلِمْ ، فقد حان وقت إسلامك ، فأسلم الغلام[3].

الجنيد في كتاب التجليات لابن العربي:

من أعمق كتب ابن العربي كتاب التجليات المشتمل على 109 تجلّ ؛ وفي قسم منه ذكر اجتماعه الروحاني البرزخي مع بعض من تقدّمه من أكابر العارفين ، وحواره معهم حول كلمات صدرت منهم تتعلق بمسائل التوحيد(من التجلي 54 إلى التجلي 72). وقد جمعنا كتابا أوضحنا فيه أنّ كلّ تجل من تلك التجليات يرجع إلى آية أو آيات من سورة البقرة[4]. ولنذكر في ما يلي خلاصة ما يتعلق بالجنيد في ثلاثة تجليات:

التجلي 54 : تجلي المناظرة

---

[1] المصدر السابق ، الباب30 ، الجزء1 ، ص199-200.

[2] المصدر السابق ، الباب108 ، الجزء2 ، ص 192.

[3] الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري ، دار الكتب الحديثة ، مصر ، طبعة 1966م ، ج2 ، ص 493.

[4] عنوان هذا الكتاب:"الشرح القرآني لكتاب التجليات لابن العربي" ؛ طبعته ونشرته دار عالم الكتب الحديث بالأردن سنة 2017 ، 367 صفحة.

نص التجلي:

لله عبيد ، أحضرهم الله تعالى فيه ، ثم أزالهم بما أحضرهم ، فزالوا للذي أحضرهم. فكان الحضور عين الغيبة ، والغيبة عين الحضور ، والبعد عين القرب ، والقرب عين البعد ؛ وهذا مقام اتحاد الأحوال. واجتمعت بالجنيد في هذا المقام ، وقال لي: "المعنى واحد" ؛ فقلت له:"لا ترسله ، بل من وجه ، فإنّ الإطلاق فيما لا يصح الإطلاق فيه يناقض الحقائق". وقال: "غيبه شهوده ، وشهوده غيبه" ؛ فقلت له: "الشاهد شاهد أبدا ، وغيبه إضافة ، والغيب غيب لا شهود فيه لا تدركه الأبصار ، فالغائب المشهود من غيبه إضافة". فانصرف وهو يقول: "الغيب غائب في الغيب". وكنت في وقت اجتماعي به في هذا المقام ، قريب عهد بسقيط الرفرف ابن ساقط العرش ، في بيت من بيوت الله عز وجل.

- سماع ابن سودكين على هذا الفصل:

ويقول ابن سودكين تلميذ الشيخ: « سمعت شيخي وإمامي- رضي الله عنه- يقول في أثناء شرحه لهذا التجلي ما هذا معناه: في هذا المشهد يجتمع الضدّان ، لأنه أزالهم بما أحضرهم من الوجه الذي أحضرهم. وإذا تحقق العبد بذوق هذا التجلي ، علم حكم الحق سبحانه في كونه ظاهرا وهو باطن من ذلك الوجه الذي هو به ظاهر. وكذلك علم حكم كونه أولا من الوجه الذي هو آخِر ، لا بوجهين مختلفين ولا بنسبتين. وليس للعقل في هذا المشهد مجال. وكذلك يعلم المتحقق بهذا المشهد كيف تضاف النسب إلى الله تعالى من عين واحدة ، لا من الوجوه المختلفة التي يحكم بها العقل في طوره. وهذا المشهد من مشاهد الطور الذي هو وراء طور العقل. وهذا المشهد هو مقام اتحاد الأحوال. واجتمعت فيه بالجنيد- رحمه الله - فقال لي: "المعنى واحد". فقلت له: "في هذا المقام خاصة ، لا في كل مقام فلا ترسله مطلقا يا جنيد. فإنّ الباطن والظاهر من حيث الحق واحد. وأمّا من حيث الخلق فلا. فإنّ نسبة الظاهر من الحق إلى الخلق غير نسبة الباطن. فلها دليلان مختلفان بالنظر إلى الخلق. فلا يقال فيهما أنهما واحد في كل مرتبة. فلهذا قلنا: لا ترسله". فقال الجنيد: "غيبه شهوده ، وشهوده غيبه". فقلت له: "الشاهد شاهد أبدا ، وغيبه إضافة ، والغيب غيب لا شهود فيه. فشهود الحق سبحانه لنا إنما هو من غيبه الإضافي ؛ وأمّا الغيب المحقق فلا شهود فيه أبدا ، وهو الغيب المطلق. ولو غاب عن الله تعالى شيء لغابت نفسه عنه. لكن لا يصح أن يغيب عنه شيء. فهو سبحانه يشهد نفسه لا كشهودنا. فإنّ الشهود والحجاب وجميع الأحكام في حقنا ، نسب وإضافات وأحكام محققة ، وهو سبحانه أحدي الذات ليس فيه سواه ، ولا في سواه شيء منه. وإنما هذه ألسنة التعريف يطلقها العارفون للتوصيل والتقريب والتأنيس والتشويق". وقوله رضي الله عنه:" لا تدركه الأبصار ، فالغائب مشهود من غيبه إضافة". قال في شرحه: ليس تخصيص الأبصار ينفي الإدراك عنها. فنفي الإدراك عن الأبصار التي هي إمام العقل. لأن العقل تلميذ بين يدي الحس عند المحققين. فلمّا انتفى الإدراك عن البصر الذي هو الوصف الأخص كان العقل أبعد إدراكا وأبعد. لكن للحق تعالى مناظر يتجلى فيها.

فتلك المناظر هي الغيب الإضافي الذي يصح أن يقال فيه: غيبه شهوده. وتلك المناظر لا يصح تجليها من حيث هي ، ولا وجود لها إلا بتجلي الحق بها إليك. فالمناظر هي مدرك الناظر ، وهي توجهات خاصة من الحق تعالى ، أظهرت أحكامها في كل موطن بحسب ذلك الموطن. ولهذا تفاوت إدراك أهل التجلي بقدر قوة استعدادهم وتحققهم في التمكين. ولو كانت الذات المنزهة من حيث هي ، هي المشهودة ، لما صحّ أن يختلف أثرها ، ولا كان يقع التفاضل في شهودها. فلما وجدنا اختلاف الآثار ، علمنا أن المدارك إنما تعلقت بالمناظر المناسبة للناظر. فتحقق. واعلم أن رؤية السلطان والتلذذ بشهوده ، لم تكن تلك اللذة من كونه إنسانا ، إنما كانت من كونه سلطانا ، ولأنّ عند الناظر نسبة تلذذتَ بهذا الوجه الزائد على إنسانية السلطان. وهو حكم النسبة التي طَلبت وطُلبت- بفتح الطاء وضمّها- ، وبها حصل التلذذ. فهذا حكم الحق تعالى ؛ فإنّ النسبة والمرتبة تطلبنا ونطلبها ، لا الذات المنزهة. فافهم. فذات السلطان اقتضت السلطنة ، والمرتبة هي المشهودة ، وهي التي حجبت المحلّ أن يقوم به الإدراك. وهاهنا سر كبير ، وحقيقة عظيمة ، أقرب نسبتها إلى الكون هو حقيقة المرآة. وفيها أسرار عزيزة. والسلام. وقول الشيخ: "كنت في هذا المقام قريب عهد بسقيط الرفرف بن ساقط العرش". أشار - رضي الله عنه- إلى ظهوره بالحلية التي اقتضاها وصف الجنيد في ذلك المشهد ، حيث أطلق ما من شأنه أن يتقيّد. والله يقول الحق».

<u>تعقيب:</u>

لهذا التجلي تناسب مع الآية 74 من سورة البقرة: [ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ].

ففي مقام اتحاد الأحوال تجتمع الأضداد ، كما عبّر عنه الجنيد. وفي هذه الآية يظهر ذلك الاتحاد في جمع الحجارة بين القساوة وتفجرها أنهارا وهبوطها خشية لله. ومناسبة هذا التجلي لمقام الجنيد هو أنه لما سُئل عن سبب عدم تحركه عند السماع ، خلافا لغيره من الواجدين والمتواجدين ، أجاب بالآية 88 من سورة النمل : [وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب] ؛ فالجبال جمعت بين الضدّين : رسوخها كأوتا د للأرض لكي لا تميد ، ومرورها مر السحاب في السرعة. فالجنيد وأمثاله ، متحرّكون في الباطن ، ساكنون ثابتون في الظاهر ، لرسوخهم في مقام التمكين في التلوين.

وهذا التجلي مناسب أيضا لمقام من يسمّيه الشيخ "سقيط الرفرف ابن ساقط العرش". وموقع التناسب هو قوله تعالى في آية هذا التجلي : [وإن منها لما يهبط من خشية الله] ، لأنّ هذه الآية هي هِجّير سقيط الرفرف ، كما ذكره الشيخ في الباب 381 من الفتوحات ؛ ففي الفصل الثامن عشر منه يقول:[رأيت بقونية في مشهد من المشاهد شخصا إلهيا يقال له "سقيط الرفرف ابن ساقط العرش"(...) قال تعالى:"وما تسقط من ورقة" ، وهي ما تسقط إلا من خشية الله ، كما قال :"وإن منها لما يهبط من

خشية الله"]. وفي الباب 73 عاد الشيخ إلى ذكره ، وقال إن آيته من كتاب الله فاتحة سورة "النجم" ، أي : " والنجم إذا هوى" ؛ فهي مماثلة للحجارة التي تهبط من خشية الله. وقوله عنه: "أن حاله لا يتعداه"، مناسب لجمادية الحجارة ؛ و"فيه انكسار" مناسب لتشققها بالماء ؛ و"له لسان في المعارف"، مناسب للأنهار المتفجرة من الحجارة ، فكثيرا ما تشبَّه المعارف بالمياه الدافقة الحاملة للحياة ؛ وقوله عنه أنه شديد الحياء ، مناسب لهبوط الحجارة من خشية الله.

وقول الشيخ:[وكنت في وقت اجتماعي به في هذا المقام ، قريب عهد بسقيط الرفرف ابن ساقط العرش ، في بيت من بيوت الله عز وجل]. يعني اجتماعه البرزخي الروحاني بالجنيد وسقيط الرفرف في تجلي هذه الآية 74 من سورة البقرة. واجتماع أرواح الأولياء والأنبياء في بيوت تجليات الآيات القرآنية معروف عند أهله ، وصرّح الشيخ به هنا في هذا الكتاب ، وفي مواقع أخرى من نصوصه. فمثلا في الباب 278 المتعلق بمنزل سورة "قريش"،يقول:[واعلم أن هذا المنزل إذا دخلته تجتمع فيه مع جماعة من الرسل- صلوات الله عليهم - فتستفيد من ذوقهم الخاص بهم علوماً لم تكن عندك ، فتكون لك كشفا كما كانت لهم ذوقا] ، ثمّ عدّد أنواعا من هذه العلوم ، المستفادة منهم في بيوت آيات منزل "قريش".

التجلي 58 : تجلي بحر التوحيد

نص التجلي:

التوحيد لجّة وساحل. فالساحل يُنقال ، واللجة لا تنقال. والساحل يُعلم ، واللجة تذاق. وقفتُ على ساحل هذه اللجة ، ورميت ثوبي ، وتوسطتها ، فاختلفتْ عليّ الأمواج بالتقابل ، فمنعتني من السباحة ، فبقيت واقفا بها لا بنفسي ؛ فرأيت الجنيد ، فعانقته وقبّلته ، فرحّب بي وسهل ، فقلت له: "متى عهدك بك ؟" ، فقال لي: "مذ توسّطتُ هذه اللجة ، نسيتني فنسيت الأمد". فعانقني وعانقته ، وغرقنا ، فمتنا موت الأبد ، فلا نرجو حياة ولا نشورا.

سماع ابن سودكين على هذا الفصل:

ويقول ابن سودكين: «سمعت شيخي وإمامي يقول في أثناء شرحه لهذا التجلي ما هذا معناه: ساحل التوحيد هو توحيد الدليل ، وهو الذي يُنقال. وتوحيد الذات ، هو اللجة وهي التي لا تنقال. وقوله: فرميت أثوابي ، أي تجرّدتُ عن هيكلي وبقيتُ مع اللطيفة. فتوسطت اللجة ، أي طلبت الذات ، وهو توحيد العين. وقوله: لقيت الجنيد. أي له مشاركة في هذا المقام. وإذا كان الجنيد فيه — أي في هذا المقام - فقد تجرّد عن هيكله كما تجرّدت. فقلت له: متى عهدك بك ؟ أي متى تجرّدت عن هيكلك ؟ فقال: منذ توسطتُ هذه اللجة نسيتني فنسيت الأمد. وذلك أنّ الأمد إنما يجري على الهيكل الذي هو ميزان الأزمان ، فلا تعرَف إلا به. وقول الشيخ: فعانقني وعانقته وغرقنا فمتنا موتة الأبد. الموت هاهنا هو

حياة الأبد. أي متنا عن توحيد الدليل فمحال أن نرجع إليه ، فلهذا قلنا لا نرجو حياة ولا نشورا. فتحقق».

التجلي 67: تجلي توحيد الربوبية

نص التجلي:

رأيت الجنيد في هذا التجلي ، فقلت له: "يا أبا القاسم كيف تقول: في التوحيد يتميّز العبد من الرّب ؛ وأين تكون أنت عند هذا التمييز؟ لا يصح أن تكون عبدا ولا أن تكون ربّا ؛ فلا بدّ مِنْ أنْ تكون في بينونة تقتضي الاستشراف والعلم بالمقامين ، مع تجرّدك عنهما حتى تراهما". فخجل ، وأطرق ؛ فقلت له: "لا تطرق ، نِعْم السّلف كنتم ، ونِعم الخلف كنا ، الحظ الألوهية من هناك تعرف ما أقول: للرّبوبية توحيد ، وللألوهية توحيد ؛ يا أبا القاسم قيّد توحيدك ولا تطلق ؛ فإنّ لكلّ اسم توحيدا وجمعا". فقال لي:"كيف بالتلافي؟ وقد خرج منّا ما خرج ، ونقل ما نقل؟". فقلت له: "لا تخف ، من ترك مثلي بعده فما فقِد ؛ أنا النائب وأنت أخي. فقبّلته قبلة ، فعلم ما لم يكن يعلم. وانصرفت.

سماع ابن سودكين:

ويقول ابن سودكين: « سمعت سيدي وشيخي يقول ما هذا معناه: اعلم أنّ لكل اسم من الأسماء مدلولين: الذات ، وأمر زائد على الذات ، وهو ما تعطيه خصوصية ذلك الاسم. فالتوحيد الذي يُنسب إلى كل اسم هو من حيث أنّ جميع الأسماء تدل على ذات واحدة. فتوحيد الأسماء كونها اجتمعت في عين واحدة. وأمّا الوجه الآخر ، فإنّ الأسماء أعطت بحقائقها أمرا زائدا على معقولية الذات ، كلّ اسم بحسبه. فلمّا سألتُ الجنيد ، أخذ ينظر في توحيد الأسماء من حيث كونها اجتمعت في الدلالة على الذات. وكان حكمها في ذلك حكمًا واحدا جامعا للجميع. ولذلك تحيّر لمّا عورض بالوجه الآخر. وإنما كان له أنْ ينظر في توحيد الأسماء بالوجه الآخر الذي تعطيه مراتب الأسماء. فكان له هنا أن يقوم في اسم مهيمن على الربوبية. فمن ذلك الاسم تدرك رتبة الربوبية ورتبة العبودية. فكل اسم إنما تتميز مرتبته من الاسم المهيمن عليه ؛ والهيمنة المطلقة إنما هي للاسم الجامع ، إذ جميع الأسماء مستندة إليه. ولكلّ اسم توحيد وجمع ، على هذا التحرير والتحقيق. فالجمع هو مِن كونها لها مدلولان: مدلول الذات ، ومدلول الأمر الزائد الذي يُنسب إلى مرتبة الاسم. والتوحيد هو الطرف الواحد ، كما تقدم».

تعقيب:

ما في الآية 283 من سورة البقرة وأمثالها هي المناسبة لهذا التجلي ، وهي: [وليَتَّق الله ربّه].

فالاسم الأعظم "الله" للذات وللألوهية ، ويتلوه في الهيمنة الاسم "الرّب" ، بمعانيه الخمسة: المالك ، السيد ، الثابت ، المربي ، المصلح. والتجليات المتكررة لهذين الاسمين في البقرة ، وفي القرآن كله ، كثيرة جدا ، تعد بالآلاف. وهنا حاور الشيخ الجنيد حول قوله المشهور: "التوحيد إفراد الحدوث عن القدم" ، وبيّن له الصواب. وختم هذا التجلي بقوله: وانصرفت. فلننصرف مع الشيخ الأكبر إلى البيت الذي قال فيه شاعرهم:

على الدرّة البيضاء كان اجتماعنا   وبقاب قوسين لقاء الأحبّة.

والحمد لله ربّ العالمين.